أربع قصص

بقلم
محمد شكري

اشجار صلعاء

ضخم . منقاره معقوف . براثنه طويلة وحادة . أصلع . الشمس تحرق . اشجار هذه المنطقة لم تعد تورق منذ زمان . ظلال فروعها قصيرة ورقيقة . لم يبق من بعضها الا جذوعها . محروق اكثرها وبعضها مخروم بالنار او بالسوس . جثث بشرية تفشى فيها الانحلال ، ملابس عسكرية ، احذية ، خوذات ، معدات حربية محطمة ، قليلها سليم . كل ما هو مبعثر على امتداد المنطقة الشاسعة محطم او محروق . الشمس تكوي . لا اثر لحياة انسانية . كواسر تحلق هنا وهناك واخرى تجثم على الاشجار اليابسة او فوق الجثث .

ضخم . منقاره معقوف . براثنه طويلة وحادة . أصلع . الشمس قوية . تحرك . تحركت . طار . يحلق فوقي . ظله يدنو مني . صارخا استنجد وخابطا بيدي تحته . عاد ليجثم على فرع مجذوع . ألهث . اللعين ! لا يلهث مثلي . يسخر مني . يستهلك قواي . ينوّمني الآن بنظراته الشرسة . يستنزفني كلما خبطت تحته . لقد اجبرني على هذا الوضع . انني شبيه بسلحفاة مقلوبة على ظهرها تحت هذه الشمس القاتلة . لا شك سيفقأ لي عيني ثم يمزق احشائي .

السراب يتموج على مدى مرآي . حلقي متخشب . ابذل جهدا قاسيا في حركة البلع . احس كأنما حلقي ينسلخ عندما احاول ان ابلع ريقي . اخرجت قلم الرصاص من جيب قميصي . اقضمه وامضغه بجهد بالغ . سائل ساخن ينبجس في فمي كلما مضغت .

خزرت اليه بقساوة حتى لا اضعف . عضلات وجهي ترتعش . لا بد انها تفضح ضآلتي وخوفي منه . اللعنة ! ماذا سأفعل معه ؟ تحرك ، تحركت مثله . انفتح جناحاه الهائلان ، مخالبه تنتصب وتنكمش . هاجمني . تفلت الخشيبات الدامية التي لم اعفصها بعد . يخبط بأظفاره القوية وانا بأطرافي الخائرة صارخا بجنون . عاد الى فرعه . حبات العرق تتكور من على جبيني ثم تستقر على رموش عينيّ الملتهبتين .

هذه المرة انظر اليه بعيني البسري ويداي ورجلاي تنزف . يشحذ منقاره في مخالبه وفي نتوءات الجذع . في الجولة القادمة ربما سيغمض لي العين الاخرى . سيجثم عليّ كما يجثم الان على فرعه .

تحرك . صرخت . خبطت . تموضع على الفرع . حدقت فيه بجنون . يهزأ بي . تحرك . لم اتحرك . هذه المرة باغتني . يغطيني ظله الخافق وانا اصرخ بضعف . جناحاه كأنهما مروحة كبيرة تهوّيني . عاجز عن حماية عيني بيديّ . اغمضت العين المفتوحة صارخا اختنق منقلبا على ظهري . لقد فقأ لي ايضا اليمنى . بعد لحظة

هدوء انقلبت على ظهري وعيناي مغمضتان . بذلت كامل جهدي لامسح دمها الدافق على وجهي . اطبقت يدي على برغشة تخبط فوق جفني العرقان . فتحت عينيّ على الشجرة . لم يعد هناك . أمزاق قميص قاتم اللون ترفّ فوق فرع .

لم أعد أستطيع ان اقوم بحركة البلع . رأسي يغلي . حاولت ان استريح منكفئا على وجهي . اختنقت وعدت الى وضعي . كنت ، من قبل ، ارتاح دائما حين استلقي على وجهي ، لكنني الان أجد هذا الوضع غير مريح . الارض تختزن حرارة النهار طوال الليل . احس نبضات قلبي تكاد تتوقف : بليم .. بلام .. بليم .. بليم .. بلام .. بلام ..

هل سأجف هنا كما تجفّ الخضر في الصيف ؟ جربت صوتي : ايه ! ايه ! واهن وغريب عني . بعد هذا الانين ، سال تحسن طفيف في جسمي . لكن ربما لن استطيع مرة اخرى ان ابذل مثل هذا المجهود الفاني .

* * *

القوة السالبة

خطوات تزحف . فتحت عينيّ . امسكت بندقيتي المسندة الى الشجرة . صرنا نتضارب بحربتي البندقيتين . تلافى ضربتي . أصابتني طعنة في صميم أسفل بطني . أطلقت بندقيتي . قبضت على الحربة المغروزة في أوصالي . لم يكن غير شيء منتصبا لزجا في يدي . شعرتني مسحوبا بقوة الى الوراء . الحبل الذي يشدني من الابطين يتدلى من الشجرة . يسحب من بعيد ، من مكان ما لم أستطع أن أتبينه . ربما يسحب من احدى الاشجار القريبة من هذه التي صارت قدري . رفعت رأسي الى فروعها . شيئا فشيئا اسحب مرفوعا . احاول فك عقدة الانشوطة في ظهري . ربطوني وانا نائم . كفّ سحب الحبل . جسدي الآن مرفوع حوالي اربع اوخمس اذرع . اتأرجح كلما تحركت .

على مدى أقصى رؤيتي جسم انسان في مثل وضعي . ارجحت نفسي لافتا نظري الى جهات اخرى . اجسام مشنوقة من عنقها واخرى مصلوبة من يديها او رجليها وفي مثل وضعي أخريات . لست الوحيد اذن .

في الليل صار في فمي غراء . الصمت في المنطقة مطلق . شميم الروائح كريه . السماء جميلة . ابدا ما تأملتها مثلما اتأملها في هذه الليلة القمراء . ربما لم اكن استطيع رؤية غيرها . كم هي الاشياء التي لا تتجلى رائعة الا حينما اتهالك متعبا او مريضا ! لكن وضعي الان اكثر انحطاطا من كل تعب او مرض .

ـ ماذا تفعل ؟

ـ اطلق النار على ما في السماء من قبح .

ـ لكن ما في السماء جميل لا يموت .

ـ ما في السماء ايضا يموت . الجميل والقبيح يموتان . الموت على الارض وفي السماء .

ـ اقتل ما على الارض قبل قتل ما في السماء . اذا قتلت ما على الارض فسهل عليك قتل ما في السماء

ـ كلا ثم كلا . اذا قتلت ما في السماء فسيموت نصف ما على الارض . قد يموت كل ما على الارض .

نمت وحلمت . سروالي مبتلّ . ها رائحتي الصغرى تفوح . مرة أخرى أتأمل السماء كما لم أتأملها من قبل . اتأملها مثلما اتأمل سماء نفسي في ايام المرض واليأس . الاشكال السحابية السابحة في ضياء القمر تبدو كأنها حيوات بلغت زمن القوة السالبة . في مخيلتي امرأة مستقلية على صخرة بحرية تعريها الشمس وتغمرها امواج باسيفيكية . ربيع « ايفران » ، شواطيء « فيجي » ، « تاهيتي » ، « هاواي » ، « سري لانكا Sri Lanka » وكل مواسم « الاطلس » الموشوم .

* * *

اذيال الكلاب الصغيرة

كلب صغير يفترس ذيله بشراسة . صاحبته تبكيه : « ساتورنوس ، كفاك يا صغيري . ستلتهم نفسك كلها » .

يهددها بتكشيرة مسعورة كلما حاولت ان تحاذيه . يدور على نفسه مفترسا ذيله . حزام عنقه يدور معه . يلتف حول جسمه . لم تستطع ان تمنعه . اوشك ان يلتهم نصف ذيله . لم يكف . هي تبكي وهو لم يشبع من التهام ذيله . جاء كلب ضخم ، شريد ، وحشي ، نصفه حمار ونصفه كلب واحتضن الكلب الصغير الذي استسلم له بلذة . سيدته تنوح صارخة : « سيقتله . يغتصبه . يبعجه . سيفطس صغيري » .

يكشران معا كلما حاولت ان تقربهما . يتلذذان بخفقاتهما . توقف شيخ عالم بطبائع الكلاب وامراضها وقال لها :

ـ سيدتي ، اطمئني على كليبك . ان القدر رحيم بك اذ ارسل لك هذا الكلب المنقذ في مثل هذه الاحوال . انه طبيب . سيلحم له جرحه الخطير لو انك تعلمين وتؤمنين . ان مرهمه السحري سيشفيه . لعله ايضا سيلقحه ضد امراض اخرى تخفى لك .

قال هذا فكفت المرأة الحزينة عن الندب .

ـ ان كليبك قد بلغ سن البلوغ فلا تخشي عليه من شيء .

الكلبان يلهثان معا وهما يتأملانهما ، يحسبهما من يراهما زوجين عاقلين . لسانهما الورديان يتدليان

وينقبضان اذ يلعقان لعابهما وهما ينبضان ، يسويان وضعهما امام ـ خلف وخلف ـ امام . تسارع خفقاتهما ولهاثهما ثم هدأ وانسلا بلا الم ولا دم خلافا لطبيعة الكلاب . واذ رأت المرأة نبوءته علامة لطفت خاطرها المهموم استبشر محياها في وجه الشيخ العاقل الوقور والعلاّمة بحياة الكلاب . قال لها اذ رأى نفسها راضية :

ـ خذيه الى منزلك ودثريه ما استطعت . لا تطعميه الا ما تيسر وخفّ من طعام لذيذ مدة يومين او ثلاثة والا فعدة من ايام اخر . خذيه وزميله . لقدنفث له في جسمه أجود المراهم واقواها. أبشري، انه سينمو له ذيل افضل مما كان له واجمل . اصدقيني القول .

قال الشيخ العليم بأسرار الكلاب هذا للمرأة التي طمأنها قوله الحكيم واختفى . وقبل أن تنصرف شاكرة مبتهلة أبصرت سيدة مقبلة أبكاها النحس مما اصابها ، تحمل كليبا شبيها بالذي لها ، عجيزته ادماها نزيف خطير . سألتها رحمة بها :

ـ ما اصابك يا سيدة ؟

واذ آنست المرأة المحزونة حسن نية سائلتها قالت:

ـ مجنون هائم حزّ له ذيله بموسى وهرب . لولا اني ادركته لبتر له ايضا اذنيه .

ـ ولماذا فعل له هذا ؟

ـ انه مجنون يسبح . يقطع ذيول الكلاب الصغيرة. اذا استطاع فانه يحزّ لها حتى آذانها .

ـ لكن لماذا يفعل هذا لهذه المخلوقات المسكينة ؟

ـ لا يمكنك ان تصدقي . انه يصنع منها الشورباء او يطبخها مع ما يستعطيه من خضر وحبوب وفضلات مما يعثر عليه في القمامات .

سانتهي هنا ، في هذه الارض التي اقحلتها الويلات البشرية مثل كومة من البرسيم اذا هم لم ينقذوني. خوذتي مرمية تحتي على الارض قربها بندقيتي .غامت عيناي . راسي يمتليء بضباب ليلي ـ احمر .احسست تمزقا في حلقي عندما اجهدت نفسي لابلع ريقي . شعرت بانسلاخات تماثلها في داخلي .

* * *

الراس الحليق

عندما افاق في الصباح ، اغتسل وتأمل شعره الغزير مرات في المرآة . انه يحب شعره . سيأسف عليه. لن يستطيع ان يمشطه الا بعد حوالي عامين . لبس ثيابه وخرج من شقته .

في الطابق الثالث نبح عليه الكلب الضخم خلف الباب المقفل . في الطابق الاول نبح عليه الكلب الصغير . قدام باب العمارة رأى رجلا يأكل النفايات من برميل الزبل . سحنته فاحمة ، اسماله ممزقة ، حافي القدمين . في الرصيف المقابل كلب بائس يلعق فمه ناظرا الى الرجل والبرميل . فتيات معمل النسيج اغثاهن آكل الزبل . احداهن تقيء لبنا متخثرا ونادل المقهى يصب الماء على القيء لاعنا مصائب الصباح .اخرى تنتحب ، اخريات ينظرن من بعيد ، يغالبن اشمئزازهن. كلهن يشفقن على آكل الزبل ويسترحمن الله على عباده المساكين والمجانين .

انتهى الرجل من أكل الزبل . لحس اصابعه ومسح يديه في مؤخرته ثم ابتعد خطوات واخذ يبول على جدار العمارة .

تناول فطوره في مقهى الاطلس ثم قصد دكان الحلاقة . جلس على المقعد الدوار وقال لحلاقه :

ـ احلق لي كل شعري بالموسى .

سيسافر في قطار الثالثة بعد الزوال. امامه وقت كاف ليجمع فيه حاجياته ويسلم مفتاح شقته لصديق سيسكنها . سيغيب عن مدينته حوالي ثمانية عشر شهرا . قد يراها في احدى العطل وقد لا يراها ابدا. اخذ الحلاق يبلل له راسه بماء دافيء واغمض هو عينيه ليسترجع كوابيسه التي انهكته ليلة امس .

طنجة

صدر حديثا :

الانسان وقواه الخفية

تأليف كولن ولسن

ترجمة سامي خشبة

دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للوصول الى ما وراء الحاضر

منشورات دار الآداب